الفصل الرابع

الجيش في عصر الدولة العثمانية

obeikandl.com

تنتقل إلي مرحلة جديدة من مراحل تطور دور الجيش في الحضارة الإسلامية ، حيث يمكن القول بأن عصر التفكك والانهيار الذي بدأ فعلياً من بداية العصر العباسي الثاني ورسمياً بتدمير بغداد على أيدي المغول ، قد أتم إحدى المراحل ليبدأ مرحلة جديدة بسيطرة الأتراك العثمانيين على أجزاء الدولة الإسلامية وإخضاعها جميعاً باستثناء مراكش بقوة السلاح ، والمفارقة التي ينبغي أن نبتدر بها هذه الجزئية هي أن عصر الدولة العثمانية قد اتسم بنزعة عسكرية وقوة تنظيمية وقتالية للجيش العثماني وتوسعات في مساحة الدولة قادها ذلك الجيش ، إلا أن كل ذلك لم يترك إلا آثاراً سلبية على الدولة والحضارة الإسلامية ، انتهى بها إلي أشلاء تتقاسمها الدول الأوروبية !! .

ولعل تحليل وتفصيص هذه المفارقة يفرض علينا البحث والتنقيب في نشأة الجيش العثماني وتطوره عبر الأطوار والمراحل التي مرت بها الدولة ، ثم متابعة تحركاته في الغزو والفتح ، ورصد قدراته التي مكنته من تحقيق طموحات آل عثمان في إمبراطورية ضخمة ، وأخيراً كيف اضمحل ذلك الجيش ولم يقدر له — بالرغم مما أحرزه — أن يقدم للحضارة الإسلامية ما كان مأمولاً منه ، وانتهى به المآل إلي الإخفاق في الدفاع عن أجزاء الدولة ، وتركها نهباً للسيطرة الأوروبية التي خرجت في حملة مسعورة على أشلاء الدولة الإسلامية ، كل هذا وغيره من المسائل سنتناولها في هذا الفصل من خلال المباحث الخمسة التالية :

المبحث الأول : النشأة العسكرية للدولة العثمانية .

المبحث الثاني : تكييف الحروب والغزوات العثمانية .

المبحث الثالث : تأسيس الجيش الانكشاري .

المبحث الرابع : انهيار الجيش العثماني .

المبحث الخامس : الجيش العثماني والحضارة الإسلامية

[تحليل مقارن مع الجيش الأموي] .

المبحث الأول

النشأة العسكرية للدولة العثمانية

المتتبع لنشأة الدولة العثمانية يمكن أن يلحظ أن العسكرية الصارمة والتنظيم الدقيق كانا أهم أسس وسمات تلك النشأة ، وقد انسحب ذلك على تطور تلك الدولة وعلى تنظيماتها السياسية والإدارية ، وكذا على علاقاتها الخارجية إلي أن وهنت قواها وأثخن جسدها بحركات التمرد والخروج ، وهذه النشأة ذات الطبيعة العسكرية للدولة العثمانية أملت على أركانها الأوَل إلي جانب المكر والدهاء والحنكة السياسية تأسيس جيش قوى ، أكسبته المعاناة التي تجشمها في سبيل بناء تلك الدولة وحمايتها وتوسعها تمرساً ومكنة ولكن ببطء وتؤدة ، وإلي التفصيل :

أولاً : نشأة الدولة وطبيعتها العسكرية :

ينحدر العثمانيون من إحدى قبائل الغز ، وقد استمدوا أسمهم من أحد أهم زعمائهم وهو عثمان ، ولم يفعل هذا الأخير إلا تجميع قوة أتباعه في إمارة بيليق في آسيا الصغرى ، أما انطلاقات الدولة العثمانية فقد تمت على أيدي خلفاء عثمان الذي توفى في الربع الأول من القرن الرابع عشر الميلادي ، وكان خلفاء عثمان من المحنكين سياسياً ، ولعل أهمهم أورخان ومراد الأول وبايزيد الأول ، وقد تمكن هؤلاء من استثمار موقع عاصمتهم البروسة على شطآن بحر مرمرة في توسعاتهم بعد ذلك وبالذات داخل الأراضي الأوربية التي تبعد عنهم عدة أميال .

وبدأ العثمانيون في توسيع حدود دولتهم الصغيرة في كافة الاتجاهات ، وقد استلزم الأمر تأسيس جيش قادر على القيام بذلك ، ولكن العثمانيين في بداية عهدهم لم يعتمدوا على الجيش وحده في توسيع دولتهم ، بل استخدموا كذلك التحالفات والدهاء السياسي وكل

ما أتيح لهم من أجل إخضاع إرادة الآخر ، وبذلك سيطروا على الصرب والبوسنة وبلغاريا وجزء من اليونان وذلك حتى أواخر القرن الرابع عشر . وفي عام ١٣٦٢ استولوا على أدرنة ، ولم يتم القرن الرابع عشر آخر سنواته حتى قُدّر للعثمانيين السيطرة على بلاد الأناضول بأسرها .

إن هذه اللمحة السريعة لترسم انطباعاً مبدئياً لطبيعة هذه الدولة التي نشأت في خضم الحروب والغزو والتحالفات والاستيلاء على المدن والإمارات الواحدة تلو الأخرى ، ومن شأن هذه الطبيعة أن تنبئ عن قيام دولة طامحة وعازمة على تكوين إمبراطورية عملاقة قوامها جيش قوى ومنظم ، ومن ثم كانت بداية الجيش العثماني الأول [جيش الغز] .

ثانياً : تأسيس الجيش العثماني الأول [جيش الغز] :

يُنسب تأسيس الجيش العثماني الأول أو ما يعرف بجيش الغز إلي خلفاء عثمان مؤسس الدولة وهم أورخان ومراد الأول وبايزيد الأول ، وقد خاضوا بهذا الجيش حروباً شرسة وعديدة ، إلا أن شوكة الجيش العثماني قد قويت منذ الاستيلاء على الأناضول بكاملها ، ومنذ ذلك التاريخ أهتم العثمانيون بالجيش اهتماماً بالغاً ، واعتنوا بأجهزته عناية فائقة ، ولم تترسخ قوة ومكنة الجيش العثماني بفعل ذلك الاهتمام وتلك العناية فقط ، بل أن التجارب القاسية التي وضع على محكها ذلك الجيش قد ساهمت بقسط وافر في ما تجمع لديه من خبرات وقدرات .

وكان أول تلك الاختبارات الجادة معركة أنقرة ، التي هزم فيها الجيش التركي أمام تيمورلنك وأسر بايزيد الأول ، وبعد خمسة وعشرين عاماً على هذه المعركة تم للعثمانيين السيطرة على النصف الغربي لآسيا الصغرى ، وتمكنوا في عام ١٤٤٤ من وقف الحملة

الصليبية . كما سيطروا على شبه جزيرة المورة [اليونان] ، واخترقوا ألبانيا حتى وصلوا إلي بلغراد .

وخلال قرن من الزمان غدت الإمبراطورية العثمانية أكبر قوة في آسيا ، وذلك بفضل أربعة من أفضل قادتها وهم محمد الثاني وبايزيد الثاني وسليم الأول وسليمان الأول الملقب بسليمان القانوني . وخاض الجيش العثماني سلسلة طويلة من المعارك مع جيوش إسلامية بهدف إخضاعها ، ولا يتسنى لأحد أن يضفي على حرب الجيش العثماني أي نوع من الشرعية ، وسنعود لتفصيل وتحليل ذلك بعد قليل .

لقد أصبح من الصعب الوقوف في وجه الجيش العثماني الذي اجتاح أقطار الدولة الإسلامية شمالاً وجنوبا ، أما في الشرق فقد توقف الجيش العثماني عند الحدود الجبلية لشرق فارس التي هزمها في معركة تسالديران سنة ١٥١٤ ، ثم سيطر على ما بين النهرين بسقوط بغداد ١٥٣٤ .

وفي شمال البحر المتوسط سقطت القسطنطينية في عام ١٤٥٣ وأصبحت العاصمة الجديدة للإمبراطورية ، تحت اسمها الجديد استانبول ، وفي عام ١٤٦٧ تمت السيطرة النهائية على ألبانيا ، وفي عام ١٤٧٥ فرضت الحماية على القرم ، وفي عام ١٥٢١ سقطت بلغراد ، وفي عام ١٥٢٦ كانت معركة الموهاكس واحتل الجيش العثماني المجر لمدة قرن ونصف ، وفي عام ١٥٢٩ حاصر النمسا

وفي الجنوب انتصر الجيش العثماني على المماليك في موقعة مرج دابق وسيطر على سوريا عام ١٥١٦ ، وبعد ذلك بعام دخل السلطان سليم الأول القاهرة وخلال نصف قرن انطلق العثمانيون بجيشهم الذي لا يقهر في اتجاه شمال إفريقيا حيث سيطروا على طرابلس وتونس والجزائر باستثناء مراكش

وفي البحر تحرك العثمانيون بشكل جيد عبر أسطول بدا قوياً وفعالاً . وكان البحر المتوسط يمثل المجال الحيوي لذلك الأسطول . ففي عام ١٤٦٢ انتزع الأسطول العثماني جزيرة لزيوس (موللى) من سكان جنوة ، وفي عام ١٤٧٠ أنتزع جزيرة أبيه (تجرونيت) من سكان البندقية ، وفي عام ١٥٢٢ انتزع جزيرة رودس من فرسان القديس يوحنا ، ومن ثم صار بحر إيجه بحيرة عثمانية . وفي عام ١٥٧٠ — ١٥٧١ سقطت جزيرة قبرص ، وتبعتها جزيرة كريت عام ١٦٤٥ ، ثم جزيرة أوترانت ، وكلها تابعة للبندقية . كما غزت البحرية العثمانية مدينة نيس عام ١٥٤٣ .

obeikandl.com

المبحث الثاني

تكييف الحروب والغزوات العثمانية

هذا النشاط الهائل والقوة الدافعة للدولة الفتية لم تتحقق إلا بالاعتماد على جيش لديه القدرة والمكنة تنظيماً وتسليحاً وتخطيطاً ، وحتى تكتيكاً تدعمه سياسة تجمع بين الدهاء والحنكة والاستيعاب العميق والسريع لكافة التطورات الإقليمية والدولية .

لقد خاض الجيش العثماني منذ نهوض الدولة سلسلة طويلة من الحروب والغزوات الشرسة التي لم يُقهر في أيٍ منها باستثناء موقعة أنقره مع تيمورلنك – التي أشرنا إليها – ، ولابد من وقفه لامعان النظر في طبيعة ومقاصد تلك الحروب التي خاضها الجيش العثماني ، فهل خاض ذلك الجيش تلك الحروب باسم الإسلام الذي ينتسب إليه ، أم باسم الدولة وحكامها الذين أسسوه وشكّلوا قوامه من الشعب التركي الغزى الذي لا يملك إلا قدراً متواضعاً بل هزيلاً من الموروث الثقافي والحضاري ذي الخصوصية ؟ .

لقد كان بوسع العثمانيين أن يطلقوا على حروبهم وغزواتهم الشرسة والكاسحة للمناطق غير الإسلامية بأنها فتوحات ، وأن مقصدهم كان نشر الإسلام وحمل الدعوة ونقلها إلي شعوب تلك المناطق ، ولكن ماذا كان يمكنهم أن يطلقوا على اجتياحاتهم الكاسحة لمناطق وأجزاء الدولة الإسلامية ، والتي لم يتورعوا أن يُعملوا فيها السيف والقتل ، بشكل أعاد للأذهان مذابح التتار المرعبة في الأماكن التي مروا عليها ؟! .

إن المحلل الإسلامي بالذات وهو بصدد الربط بين الجيش والحضارة الإسلامية لابد أن يتوقف مليّا أمام هذه الإشكالية ، فالجيش كرمز وتعبير عن القوة لم يكن أبداً أداة من أدوات إيناع أو ازدهار الحضارة الإسلامية أو نشر نماذجها وأشكالها ، فدوره من هذه الناحية معروف — وقد سبق تفصيله – ، أما دور الجيش في الدفاع عن الحضارة فيقره

الشرع والطبع معاً . فهل حمل الجيش العثماني الدعوة ونقلها وأوصلها إلي مناطق جديدة ضمن التي اكتسحها في أوربا ؟ وهل دافع ذلك الجيش عن الحضارة الإسلامية وكيانها النظامي باجتياحاته المدمرة في أوربا المسيحية وأجزاء الدولة الإسلامية في آسيا وأفريقيا . إن ثمة سؤالاً محدداً أصبح الآن في شكله النهائي ، ربما تقدم الإجابة عليه علاجاً شافياً لتلك الإشكالية وهو : لمصلحة من كان يعمل الجيش العثماني وماذا كان مقصده النهائي ؟ .

أولاً : جمع تراث ماضي شعب الغز وتمجيده :

سبق الإيضاح أن الأتراك العثمانيين ينحدرون من قبائل الغز في وسط آسيا ، ولم تكن هذه القبائل البدوية الزراعية الرعوية على قدر يعتد به من التحضر والمدنية قبل مجيء الإسلام ، إلاّ أنها قد ملكت بعض الخصوصية فيما يتعلق باللغة ، إلي جانب موروثات متناثرة من الأنماط والسلوكات المدنية التي لم تتميز كثيراً عن سواها من القبائل والشعوب التي وجدت معها في نفس البيئة المكانية والزمانية وحتى الفكرية ، وبعد مجيء الإسلام ذابت هذه الخصوصية المحدودة لقبائل الغز في بوتقة الإسلام مع غيرها من الكيانات والتكوينات الأخرى . ولم يبق إلا اللغة وما يتعلق بها من الرموز والتعبيرات الفكرية والعقلية ، والتي حدّت من حماسها وفتّرت من همتها اللغة العربية لغة القرآن والإسلام ، وبالرغم من أن اللغة العربية لم تصبح اللغة الرسمية لتلك القبائل ، إلا أن تأثيرها كان قوياً على اللغة التركية ، كما أن الثقافة الإسلامية هذّبت كثيراً من جموح ثقافات تلك القبائل ، ومنعتها من أن تفرط في التعبير عن نفسها ، واستعراض ماضيها أيام الكفر والوثنية .

وعندما قدّر لقبائل الغز أن تقيم دولة بنى عثمان بالشكل الذي أوضحناه ، واستفحل أمر هذه الدولة ، وأوشكت على أن تتحول إلي إمبراطورية لعلها الأقوى والأعظم في زمانها ، واكب ذلك النمو السريع والغير معهود في كافة أركان تلك الإمبراطورية من سياسة واقتصاد

وإدارة وجيش سياسة حاذقة وحصيفة من سياسي هذه الدولة الذين اشتُهروا بالحنكة والدهاء والحزم، مؤداها جمع تراث ماضي شعب الغز وتمجيده ، وجاءت تلك السياسة في منطلقات على النحو التالي :

❖ إحياء اللغة التركية وتفعيلها :

تعد إمارة العثمانيين في الأناضول هي بداية تركيا الحديثة ، وقد توسع العثمانيون — كما سبق وأوضحنا — على شواطئ بحر مرمرة وأزمير واسكيشهر التي أصبحت العاصمة ، واستمر العثمانيون في توسعهم حتى سيطروا على الأناضول ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت تتشكل دولة موحدة ذات تراث وطني في هذه المناطق ، وتمثل أهم عناصر ذلك التراث في اللغة التركية التي استخدمت في الإدارة الداخلية لإمارات تلك الدولة ، وظهرت إلي جانب التركية الفارسية والعربية . فاللغة العربية كانت لغة الدين وبعض العلاقات الدبلوماسية ، في حين استخدمت التركية في الأدب بكافة أشكاله مثل القصص الغنائية أو الشعر الأصيل .

لقد حدث في القرن الثالث عشر الميلادي السابع الهجري نوع من التوحد والاندماج بين الشعب التركي ولغته . واستطاعت اللغة التركية أن تجد أدواتها الفنية للتحدث والكتابة بالشكل والذوق اللذين أرادهما العثمانيون مؤسسو تركيا الحديثة ، ومن ثم يمكن القول أن الأدب العثماني بدأ يبحث عن أصله في هذا القرن الثالث عشر الذي منه بدأت بداياته المتواضعة .

❖ البحث عن موروثات حضارية وسلوكات مدنية :

كذلك شرع العثمانيون يبحثون عن موروثات حضارية خاصة بهم وسلوكات مدنية تميزهم . وكان ذلك البحث الدائم والدائب عن الذات يوحي بأن هؤلاء العثمانيين يؤهلون أنفسهم

للقيام بدور بطولي في صناعة تاريخ وأحداث العالم في فترة من فتراته ، وبالرغم من الجهد الذي بذله العثمانيون في هذا الصدد ، إلا أنهم لم يفلحوا في رصد قدر مقنع من الموروثات والسلوكات يشفع لهم ارتياد ذلك الدور .

❖ من البحث عن الموروثات إلي التفرد في السياسات والنظم والتنظيمات :

كان العثمانيون يدركون ضآلة رصيدهم الحضاري وخفة وزنه في ميزان الترجيح مع العناصر الإسلامية الأخرى مثل العرب والفرس ، ومن ثم انطلقوا إلي صياغة سياسات صارمة ونظم وتنظيمات محكمة سياسية واقتصادية وإدارية ..الخ ، ظهرت في دولتهم المركزية ثم شوهدت بعد ذلك في الدويلات الإسلامية التي أصبحت ولايات في الإمبراطورية العثمانية ، ولكن هذه النظم والتنظيمات لم تتفاعل مع البيئات التي نقلت إليها .

❖ تصوير العثمانيين لأنفسهم على أنهم الباعثون الجدد للدين :

تعامل العثمانيون مع الواقع الذي واجهوه بمنطق المبعوث رحمة للدين الذي كان قد أوشك على التفتت والتمزق والضياع بين أبنائه الذين أساءوا فهمه بل وأساءوا إليه . وبرز ذلك المنطق واضحاً في سياساتهم وفي نظمهم وتنظيماتهم وحتى في علاقاتهم الأممية التي كانت في معظمها مرتكنة إلي الصراع العضوي الشرس أو الخداع والدهاء السياسي ، ولعل ذلك المنطق قد اقتنع به الكثيرون من أبناء العالم الإسلامي على مستوى الحكام والعامة وحتى على مستوى المفكرين ، فهاك بن خلدون يقول في كتاب العبر " ففي الوقت الذي أصبحت الخلافة ضعيفة خائرة القوى وغير قادرة على الدفاع عن نفسها ضد الهجمات ، فكان من لطف الله سبحانه أن تدارك الإيمان بإحياء رمقه ، وتلاقي شمل المسلمين الديار المصرية يحفظ نظامه وحماية سياجه بأن بعث لهم من هذه الطائفة الشركسية وقبائلها الغزيرة المتوافرة أمراء حامية وأنصار متوافية ... فيسترشح من يسترشح منهم لإقتعاد كرسي السلطان والقيام بأمور المسلمين عناية من الله تعالى سابقة ولطائف في خلقه سارية " .

❖ تمجيد التراث المتواضع وتضخيم الذات البسيطة :

كان للانتصارات التي حققها العثمانيون وإخضاعهم لدويلات العالم الإسلامي والأجزاء المتاخمة من العالم المسيحي في أوربا وآسيا مفعول السحر ، فقد انتشوا بتلك الانتصارات وراحوا يبالغون في تمجيد تراثهم المتواضع ويضخمون ذاتهم البسيطة ، وقد تبدى ذلك في سياساتهم تجاه العالم المسيحي ، في علاقاتهم به ، وكذا تجاه العالم الإسلامي ذاته الذي بات ولايات عثمانية في إمبراطوريتهم المترامية ، لقد تعامل الباب العالي بفوقية فظة مع غير الأتراك، فسفراء الغرب المسيحي يُقرعون بالعصي في الأستانة ، وأفراد الشعوب الإسلامية يصبحون ملكية خاصة للسلطان أي عبيداً له ، والمسلم لا يُستعبد ، فكيف لدولة يقال أنها إسلامية وتحمي الإسلام وتدافع عنه وتتحرك باسمه تعيش على استعباد المسلمين ؟ ! .

ثانياً : الفتح كان لمصلحة الدولة ولمصلحة مجد الشعب التركي وإثراء تاريخه المتواضع :

الحديث عن ما يسمى بفتوحات وحروب الجيش العثماني ذو شجون ! ، فلقد كانت تلك الفتوحات في المناطق غير الإسلامية في أوربا وآسيا مبررة ومقبولة على أنها لمصلحة الإسلام، وبهدف حمل وتوصيل الدعوة الإسلامية ، ولكن ماذا يمكن أن نطلق على الحروب الكاسحة والمدمرة التي خاضها الجيش العثماني ضد الدويلات والشعوب الإسلامية ! .

لقد كانت علاقات الدولة العثمانية مع الغرب علاقة غريبة ومعقدة ، فلقد كان هناك ميل لمؤسسي الدولة العثمانية الأوائل نحو الغرب المسيحي ، وربما استمر ذلك الميل واكتسب أبعاداً أخرى بعد استقرار الإمبراطورية ، لقد كان الميل نحو الغرب المسيحي هو نتاج

لحنكة سياسية ودراية بالأوضاع الدولية والإقليمية السائدة آنذاك من قبل أوائل السلاطين العثمانيين . وقد تطور ذلك الميل إلي ما يشبه التحالف .

وعلى جانب آخر لتلك العلاقة الغريبة والمعقدة كان العثمانيون يقومون باختطاف الأطفال المسيحيين من المقاطعات لتجنيدهم وتغيير دينهم قهراً وفق لعادة الغز . أو أن تتم تربيتهم ليخدموا في البلاط كعبيد لدى السلطان .

في ذات الوقت وضمن تلك العلاقة المركبة والمعقدة مع غير المسلمين نلاحظ أن الإدارة العثمانية الجديدة للبلاد التي دخلوها كانت تبتعد تماما عن التنظيمات السياسية والطائفية القائمة . وأمكن للمسيحيين أن يحصلوا على مراكز وظيفية مرموقة في المكاتب والدوائر العثمانية . وأمكن لغيرهم الحصول على مقاطعات [1] و إقطاعات [1] إذ كان من التعين على أولئك وهؤلاء تبعيتهم وإخلاصهم للدولة لا للدين الإسلامي . كما حدثت كذلك استثناءات وتسامحات عديدة في أوربا . فقد سمح العثمانيون للأمراء المحليين حق إدارة مقاطعاتهم كيفما شاءوا شريطة خضوعهم للدولة ودفع الجزية . ومن ثم يمكن إلحاق هذه السلوكات والسياسات الإدارية في سياق السياسة العامة للدولة القائمة على الخبرة والحنكة السياسية أكثر من أي شيء آخر .

ووصل التسامح العثماني قمته عندما قدم استانبول ملجأ لليهود الأوربيين الهاربين من مذابح القياصرة . فوصل إليها يهود بوهيميا الهاربين . ثم القادمون من النمسا وبولندا . وبعد عام ١٤٩٢ جاء الهاربون من أسبانيا الكاثوليكية شديدة التعصب . عندئذ أصبح كل يهود الإمبراطورية العثمانية خاضعين للحاخام باشي المقيم في استانبول . والذي يعتبر شخصية رسمية في الدولة .

وبالنسبة للمسيحيين فقد كان وضعهم أكثر تقديراً . فالطائفة الأرثوذكسية كانت خاضعة للبطريرك اليوناني للقسطنطينية . أما الطائفة الأرمنية فلم تكن أقل مكانة إذ أن بطريركها

كان له نفوذ على الكاثوليك والنسطوريين واليعقوبيين وعموماً كان له نفوذ على جميع الطوائف المسيحية غير الأرثوذكس ، وحدث في بعض الظروف أن احتفظت هذه الطوائف بجنسيتها وبتبعيتها الطائفية .

وعلى مستوى الحياة الاجتماعية والاقتصادية كان العثمانيون يفرضون النظام في كل مكان تقريباً ، مما ساعد على تنشيط وتفعيل الاقتصاد والمجتمع معاً ، وفي هذا السياق أحرز اليونانيون سبقاً في مجال التجارة . وكذلك اليهود والأرمن في الأعمال التجارية والمالية ، والأقباط في الحياة الاقتصادية والإداريه في مصر

إن ما يمكن استخلاصه مما تقدم أن العثمانيين قد ركزوا على إبراز وجه الدولة وتكثيف الضوء على سياستها وإدارتها ، في الوقت الذي تم تهميش الدعوة في هذه المناطق من أوربا وآسيا ، والحق الذي لا مراء فيه أنه باستثناء عمليات اختطاف وإعداد الأطفال المسيحيين وتحويلهم إلي انكشارية ، لم يحدث في أي مكان في الإمبراطورية إدخال أي شخص في الإسلام بالإكراه ! .

إن العثمانيين إذا كانوا قد برعوا عسكرياً في غزو مناطق واسعة من أوربا وآسيا ، ثم نجحوا سياسيا وإدارياً في إدارة وسياسة هذه المناطق بشكل جيد . فإن ذلك قد جاء لمصلحة الدولة التركية ولمصلحة مجد الشعب التركي وإثراءً لتاريخه المتواضع . أما الدعوة فلم تحظ بالاهتمام الذي كان ينبغي أن يتواءم مع جملة الانتصارات التي تم إحرازها على الأصعدة العسكرية والسياسية والإدارية . وبالنسبة إلي تحول بعض المناطق في أوربا إلي الإسلام فقد كان مثلما حدث على امتداد تاريخ الإسلام نتيجة عوامل اجتماعية صرفة مثل الرغبة في الانتماء إلي الطبقة الحاكمة ، أو رد فعل انتقامي ضد الاضطهادات الكاثوليكية مثلما حدث في البوسنة ، أو هرباً من ثقل جباية الضرائب التي تجبيها الكنيسة الأرثوذكسية ، ولم تكن هذه التحولات الجماعية إلي الإسلام نتيجة حركات

دعوية نظمتها الدولة العثمانية كدولة داعية ، إذ أن السؤال ، لماذا دخل الأتراك إلي هذه الأراضي ؟ المفترض أن الهدف الأساسي هو حمل وتوصيل الدعوة وتبليغها ، إلاّ أن شيئاً من ذلك لم يحدث ، وتحول الأمر إلي مجرد غزو ، ثم احتلال ظاهره باسم دولة إسلامية ترفع شعار الإسلام ، وباطنه إمبراطورية تسعى إلي المجد والسلطان .

لم تحاول السياسة العثمانية المساس بالمؤسسات والتنظيمات الأساسية في المناطق التي احتلوها في آسيا وأوربا إلا في أضيق نطاق ، وقد اكتفت تلك السياسة بفرض سلطة مركزية قُدّر لها جمع تراكمات الماضي الإسلامي والبيزنطي معاً ، ومن شأن الماضي الإسلامي أن يمثل الأغلبية العظمى ، وبداخل هذا الميراث الإسلامي وفي ثناياه يتم البحث عن بعض الأمداء أو الانعكاسات للعادات التركية وإن كانت بشكل نادر ! .

لقد حاول الساسة في الأستانة بمكر ودهاء تبرير تصرفاتهم وسلوكاتهم باسم الإسلام ، فمنذ ولاية سليمان القانوني تم وضع مفتى استانبول الكبير الذي يعرف بشيخ الإسلام ، الذي يمثل الضمير الديني للأمة في أعلى قائمة جميع رجال القضاء والفقهاء ، تالياً في الترتيب لرئيس الوزراء ، أي الشخصية الثانية في قمة الهرم الإداري للدولة ، وكان ذلك بهدف واضح وصريح هو أن يمنح شيخ الإسلام الصفة الشرعية لأعمال السلطة ، وباتت كل تصرفاتها مبررة شرعاً .

إن الإسلام لم يتمكن من كبح جماح العثمانيين ، وتكييف تصرفاتهم وسلوكاتهم وسياساتهم وفق قيمه ومبادئه ، ولكنهم طوّعوا الإسلام وحوّروه بما يخدم مصالحهم ، ففي ظل الإسلام والدولة الداعية تم قتل الأشقاء حتى ينفرد القتلة بالحكم ! ، لقد خنقت الإمبراطورية العثمانية الإسلام عندما استغلته لمصلحة شعبها ومجد حكامها .

وإذا تحولنا إلي المعاملة التي لقيها المسلمون في الدويلات الإسلامية من العثمانيين عندما دخلوا هذه البلاد بعد معارك طاحنة نجد أننا أمام إشكالية غريبة ، فالحروب التي خاضها العثمانيون مع جيوش الولايات الإسلامية في الشام ومصر وشمال أفريقيا ، كيف يمكن تكييفها ؟ هل هي حروب بغي وعدوان ؟ وهل لها تكييف آخر غير ذلك ؟ إنها أذن حرب غير شرعية من وجهة نظر الإسلام !! .

وعندما دخل العثمانيون إلي هذه البلاد بعد تلك الحرب التي لا مبرر لها من شرع أو دين ، فقد تحوّل أفراد تلك الشعوب إلي عبيد للسلطان العثماني ، حيث أنه يملكهم ملكية خاصة ، وهل يُستعبد المسلم في شرع الإسلام ؟ إن الحقائق تشهد بواقع العثمانيين ، وهو واقع غريب ومليء بالمتناقضات ، بين رغبة جامحة في إثبات الذات وطموح في تمثيل الإسلام .

ثالثاً : حدوث هوة سحيقة بين الرغبة الجامحة في إثبات الذات والطموح في تمثيل الإسلام :

لقد كان إثبات الذات يعنى بالنسبة للعثمانيين البحث عن مقوماتها وعناصر وجودها ، وكانت جميعها متواضعة . فكان لا مناص من إثبات الذات عن طريق التحرك باسم الإسلام، ومنذ البداية حدث انفصال بين مكونات الذات المتواضعة بطبيعتها والطموح في تمثيل الإسلام، الذي كان يحتاج إلي التجرد من أية أهداف أو مقاصد أخرى ، ويظل الإسلام بمفرده هو الغاية والمقصد ، ولم يفهم العثمانيون هذه العلاقة الدقيقة والحاسمة ، فإلمامهم بالإسلام كان لا يتجاوز إلمامهم به كدين يريدون نشره وجنى ثمار ذلك لأنفسهم ، فهم لم يفهموا الدين الإسلامي على حقيقته كحياة وحضارة وثقافة وشرائع قبل أن يكون شعائر ونسك وعبادات .

المبحث الثالث

تأسيس الجيش الإنكشاري

كان الجيش دوماً مفردة أساسية من مفردات تكوين السلطة العثمانية الصارم في بداية تاريخه ، كما كان محور اهتمام الدولة ، فهي دولة عسكرية ، وقد عمد العثمانيون إلي تغيير تشكيل الجيش من شكله الأول — الذي سبق الحديث عنه — وهو المكون من الأتراك الغز بشكله الصاخب الشبيه بجيش التتار إلي شكل جديد أكثر تنظيماً ودقة وإتقان ، وقد أكتمل تشكيل الجيش الجديد المعروف بالجيش الإنكشاري في القرن السادس عشر ، ونظراً لأهمية هذا الجيش في تكوين هذه الإمبراطورية ، ومن موقعه في تطور الجيش الإسلامي عبر التاريخ ، سنفرد هذه الجزئية لدراسة الجيش الإنكشاري :

أولاً : تشكيل الجيش الإنكشاري :

الجيش الإنكشاري هو جيش خاص في كل شيء ، ابتداءً من تكوينه وحتى زيه الرسمي ، مروراً بتنظيمه ومهامه وعلاقته بالسلطان الذي يتبعه مباشرة ، وقوام هذا الجيش هو الأطفال المسيحيون الذين يجلبون بالخطف على حد بعض الروايات أو برغبة وقبول ذويهم ، وكان هذا الإمداد بهذه النوعية من الأطفال يتم بانتظام مما يجعل رواية الخطف مشكوكاً في صحتها. أو على الأقل في اعتمادها سياسة ثابتة

وعلى كل الأحوال فإن الأطفال المسيحيين نواة الجيش الإنكشاري يتم تنشئتهم وتعليمهم وتربيتهم في معسكرات خاصة على تعاليم الإسلام والعادات التركية . ومن ثم يحيرون أفضل جنود الإمبراطورية عندما يتم تدريبهم وإيداعهم الثكنات .

والجدير بالتبيان في هذا الصدد أن الجيش العثماني لم يكن كله من الإنكشارية . بل كانت هناك الفرق المتخصصة ، وهذه الفرق كان يتم تعيينها عن طريق وكلاء متخصصين

بإدارة جباية الضرائب في المقاطعات والولايات ، والفرق كبير بين طبيعة وأهمية كل من الفرق التخصصية والإنكشارية . فالأخيرة هي أفضل جنود الإمبراطورية وهم تابعون مباشرة لشخص السلطان ، كما أنهم يمثلون حرس الفرق التخصصية . حيث أنهم أكثر قوة وتنظيماً وجلداً انطلاقاً من إعدادهم الخاص .

ثانياً : الأبعاد التنظيمية والعقيدية والنفسية للجيش الإنكشاري :

بالفعل لعبت الأبعاد التنظيمية والعقيدية والنفسية دوراً مهماً في حركة الجيش الإنكشاري نحو تحقيق أهدافه وقيامه بمهامه . فهذه المؤسسة العسكرية تخضع بصرامة ودقة لتعاليم الدين وأخلاقه . فالإنكشارية كتنظيم أو فرقة عسكرية كانوا تابعين لطائفة الدراويش البكتاشية ذات الصلة الوثيقة بالدين الإسلامي وتعاليمه . كما كان الجيش ممثلاً في مجلس السلطان عن طريق اثنين من القضاة هما قاضيا الجيش ومكانتهما مرموقة ومحل اعتبار

من هذا التنظيم ببعديه الديني الأخلاقي والإداري الوظيفي . كانت فرقة الإنكشارية كتشكيل عسكري على قدر عظيم من القوة والتنظيم والشجاعة والإقدام . يقوى من ذلك نمط الحياة الذي فُرض على تلك الفرقة الذي كان ذو خصوصية . فلم يكن بإمكان الجنود الإنكشاريين الزواج ، ومن ثم فلا مكان للاجتماعيات لدى هؤلاء ، وكل حياتهم للجندية وخدمة السلطان قبل أي شيء آخر ! .

ثالثاً : إدارة الجيش الإنكشاري وترتيبه :

بلغ عدد الجيش الإنكشاري العثماني وفق أكثر الإحصاءات دقة حوالي عشرين ألف رجل، وهو عدد كبير حسب إحصاءات القرن السادس عشر . وقد كان ذلك الجيش متطوراً بكافة المقاييس التنظيمية والفنية والتكتيكية وحتى اللوجستية . وتمتع هذا الجيش

بإدارة صارمة ودقيقة ، تناولت كل شيء خاص بهذا التنظيم العسكري الرفيع بالترتيب . ابتداءً من الرواتب والترقيات ، ثم التزويـد بالمعدات والأسلحة ، وكذا التحـركات وطـرق القتال . وحتى الزي الإنكشاري المميز .

أما عن تسليح الجيش الإنكشاري والجيش العثماني عموماً فقد كان تـسليحاً هـو الأحـدث من نوعه في العالم آنذاك ، إذ ربما تفوق في أسلحته على الجيوش المسيحية في أوربا وآسيا ، كما كانت مصانع الأسلحة العثمانية هي الأشهر كذلك دون منازع .

obeikandl.com

المبحث الرابع

انهيار الجيش العثماني

لقد بدأت هذه الآلة الحربية الرهيبة في الاضمحلال والوهن بعد أن حققت أهداف العثمانيين في إقامة إمبراطورية ضخمة . شملت أجزاءً كبيرة من أوربا ومعظم قارتي آسيا وأفريقيا . لقد سيطر العثمانيون على كل هذه المناطق وأخضعوها باسم الإسلام . وشرع الدهر يُجري سنته التي خلت في الأمم الماضية . ولم يفلت ذلك الجيش المخيف ودولته العاتية من صروف الزمن ونوائب الأيام . وليس أصعب على المحلل من أن يتابع الانهيار . ويرصد التردي للكيانات العملاقة والمؤسسات ذات الجبروت في التاريخ . فرثاؤها أشد وقعاً على النفس وأبلغ أثراً من رثاء البشر . إن اضمحلال الجيش العثماني وانهياره يرتبط عضويا بانهيار الإمبراطورية الشاسعة. بل إنه جزء مهم ومرحلة حاسمة من الانهيار الأشمل والأعم لمنظومة كلية من الكيانات والأنظمة والتنظيمات والأفكار وحتى القيم والمبادئ . لقد أخذ كل شيء في التهاوي والتردي . إن ما تقدم يجعل من غير المنطقي والمقبول علمياً الفصل بين انهيار الجيش العثماني واضمحلال الإمبراطورية . فكلاهما تعاطى مع الآخر في تناغم بديع ولكنه حزين حتى في السقوط والانتهاء ! يمكننا متابعة العوامل التي تكاتفت وتحالفت على الجيش العثماني وإمبراطوريته فيما يلي :

أولاً : إن انهيار الجيش العثماني قد ترتب على انهيار الجهاز السياسي والإداري للإمبراطورية . الذي بدأ منذ القرن السابع عشر . وانهار كلياً في القرن الثامن عشر . وانهيار الجهاز السياسي نعني به تحديداً انهيار السلطة . سدة الحكم في الإمبراطورية العثمانية حامية حمى الإسلام والمطبّقة لشرع الله والعاملة بكتابه والداعية لدينه . هل يعلم المسلمون ما كان يدور في كواليس الحكم في إمبراطورية الإسلام ؟! هل يعلمون أن

الاحتفاظ بالسلطة يستوجب اغتيال جميع الأقارب الذكور الذين قد يمثلون تهديداً لسلطة الحاكم أو الوريث المحدد مسبقا . ثم استبدلت عمليات الاغتيال بعمليات السجن مدى الحياة لأشقاء السلطان المتوفى ، حتى يموتوا في سجنهم . أما عبيدهم فتجرى لهم عمليات جراحية كفيلة بمنعهم من النسل ما داموا أحياء. وإذا اقتضت الظروف فقد يعتلى سدة الحكم في هذه الإمبراطورية العملاقة حكام لم ينهيئوا لذلك أبداً ، وهل يعلم المسلمون أن كل هذه الأمور كانت تدبر بين السلطان وكبير الوزراء ، إذن فأمور المسلمين العامة التي ترتبط بصميم حياتهم تديرها امرأة من وراء حجاب. هكذا كانت تُمارس السياسة في الإمبراطورية العثمانية إلي أن انحدرت وآلت إلي ما آلت إليه .

ثانياً : الإشكالية التالية هي إشكالية دقيقة ومعقدة بل ومتشابكة ، شقها الأول يتمثل في إيال السلطة المدنية إلي الحرس الإنكشاري . الذي بدأ بدوره يتدخل في السياسة بتدرجية انتبت به إلي أن يكون محركها الأساسي كما سنرى ، وشقها الثاني يتحدد في إهتراء التنظيم الإنكشاري الذي كان متسم بالدقة والصرامة . وكانت بداية ذلك في القرن السادس عشر عندما سُمح للإنكشارية بالزواج ! . ثم عندما انفتح الجهاز على مصراعية أمام العامة دون اختيار أو تدقيق أو إعداد وتربية كما كان آنفاً . ومن ثم صار أبسط الأشخاص يُعين عشوائياً ضمن هذه النخبة المتازة المختارة ، ثم عند هذه اللحظة التاريخية يبرز الشق الثالث من هذه المشكلة المتداخلة ، فمن تربوا على الطاعة والنظام الصارم أصبحوا خليطاً من ذوى المشارب والأهواء المتباينة . فتحولت الطاعة إلي رغبة دائمة في التمرد ، والنظام إلي ارتجالية وفوضى . وبات الإنكشارية في حالة ثورة مستمرة ، وتضخم نفوذهم وامتد عنيفاً عاتياً لينال السلاطين والوزراء فيوليهم ويقيلهم ، ولم يفلت أفراد المجتمع من الطغاة الجدد الإنكشارية الذين أصبحوا يشكلون مصدر رعب وإرهاب دون نصير أو مغيث . وهكذا تحول الجيش الإنكشاري المتاز إلي معول هدم وتخريب في صرح الإمبراطورية ، بدأ من السلطة وامتد إلي المجتمع .

ثالثاً : منذ القرن السابع عشر بدأ الجيش العثماني التفوق تنظيمياً وتقنياً وبسالة يعاني من انحدار مستوى تنظيمه وتقنياته وبسالته ، وبالرغم من أنه ظل صامداً أمام القوى الأوربية التي شكلت ألد أعدائه ، إلا أنه بدأ يعاني من تفوق الأوربيين عليه ، وبخفة خاصة في الأسلحة وبالذات المدفعية ، ثم في التكتيك الذي لم يعد يواكب تطور العقائد القتالية التي أصبحت أكثر ابتكاراً وإبداعاً

إن العجز العسكري والتخلف الحربي الذي ألم بالجيش العثماني انعكسا مباشرة في شكل تراجعات وانحسارات عثمانية أمام امتدادات جريئة للأوربيين ، فتنازل الأتراك عن أكبر جزء من المجر في عام ١٦٩٩ بموجب معاهدة كارلوفيتش ، ثم انسحبوا تحت نيران المدفعية الروسية الكثيفة والحديثة إلى الشواطئ الجنوبية للبحر الأسود بموجب معاهدة كوشوك كاينارجي الموقعة في عام ١٨٨٤ ، وهكذا بدأ العد التنازلي للجيش العثماني المنحدر نحو الهاوية ، وهكذا دار الزمن دورته وكانت المدفعية التي تفوق فيها العثمانيون عند بدايتهم ، وكانت أداة من أدوات التمكين السياسي والاستراتيجي لإمبراطوريتهم ، كانت هي نفسها أداة من أدوات انكسارهم وانحسار نفوذهم .

رابعاً : إلى جانب ما تقدم كان هناك الاستبداد التركي والقمع المرعب للشعوب التي وقعت تحت سيطرتهم ، وقد بدأت هذه السمة المخيفة التي ميزت السيطرة العثمانية تعتمل ببطء إلى أن أفرزت نتائجها المدمرة وأفصحت عنها في سفور ، فلقد أدى إنهيار السلطة المركزية — كما سبق وأوضحنا — إلى تراخي الرقابة على أصحاب الإقطاعيات ، حيث عتوا في الأرض فساداً ، واعتصروا طبقة الفلاحين ، وتفاقم وضع هذه الطبقة ، وأكب ذلك تلف النظام العقاري ، إلى جانب إنهيار النظام النقدي .

أيضاً أدى الاستبداد التركي إلي آثار ضارة بالنسبة للعلاقات الداخلية بين طوائف الشعوب الخاضعة . وخاصة أن ذلك الاستبداد جاء بشكل انتقائي ، حيث رفعت الإدارة العثمانية من شأن بعض الطوائف على حساب الأخرى ، مما أدى إلي التذمر والسخط وبالذات في البلقان ، كذلك استيقظت بعض القوميات القديمة في ألبانيا بين الكاثوليك ، وفي لبنان بين الدروز والأرمن التي ثارت ضد السيطرة التركية .

رابعاً : وأخيراً ولتكتمل الصورة نجد أن الإمبراطورية العثمانية تختنق ويتم الإطباق عليها من الشمال إلي الجنوب في ضغط خانق ، من أوربا الغربية ممثلة في البرتغال وهولندا ثم في فرنسا وإنجلترا ، وكذا من روسيا التي بدأت التحرك نحو المياه الدافئة في الجنوب . لقد تحركت هذه الضغوط في وقت واحد وبدأ التدخل في الشئون الداخلية للدولة العثمانية بشكل مباشر أو من خلال المسيحيين المقيمين على أراضيها . وقد تم في ذات الوقت السيطرة على التجارة الخارجية والداخلية للإمبراطورية عن طريق الاتفاقيات . وفي القرن الثامن عشر بدأ الانهيار النهائي بسبب الانحسار القاري والاختناق البحري الذي بدأت تعاني منهما الدولة العثمانية ، وتكشفت المؤامرة التي حاكها سفراء وممثلو وتجار الغرب بمعاونة شركائهم ومعاونيهم المحليين. وهكذا كانت الإمبراطورية تتهاوى ومعها جيشها المجيد .

المبحث الخامس

الجيش العثماني والحضارة الإسلامية

[تحليل مقارن مع الجيش الأموي]

لعل ثمة تجانساً بين الجيش العثماني ونظيره الأموي تجعل من الممكن إجراء تحليل مقارن بين الجيشين نخبط سلوكهما من خلال مجموعة معايير ومقاييس ذات صبغة نموذجية تتعلق بالأهداف والمقاصد ذات الخصوصية بالحضارة الإسلامية والإسلام الأكثر شمولية وعمومية ، ونشرع في هذا التحليل من خلال ما يلي :

أولاً : العصبية القبلية في مقابل العنصرية القومية :

كلٌ من الجيشين الأموي والعثماني أبتلى بنقيصة تخلّفت به عن اللحاق بركب السمو والرقى اللتين اتسم بهما نموذج الجيش الإسلامي في عهد النبوة الزاهر والخلافة الراشدة ، أما نقيصة الجيش الأموي فكانت في العصبية القبلية التي ميزت بني أمية والقبائل الشامية الموالية لها على بقية العرب ، إلا أن هذه النقيصة أخذت في التلاشي التدريجي بسبب العناصر التي دخلت إلي الإسلام ، وانضمت إلي الجيش الأموي وشاركت في الفتوحات وأبلت بلاءً حسناً ، وما يمكن أن يقال أنه بالرغم من أن الأمويين اعتمدوا في بداية قيام دولتهم ومن ثم جيشهم على العصبية القبلية ، إلا أنهم لم يقفوا جامدين في وجه المتغيرات والمستجدات ، بل تواءموا معها ، واستجابوا لها ، فخففوا من فرط اعتمادهم على تلك العصبية القبلية حتى تلاشت في أواخر حكمهم .

وأما نقيصة الجيش العثماني فكانت في العنصرية القومية ، حيث تم تأسيس الجيش العثماني من البداية على العنصر التركي فقط دون العناصر الأخرى ، بل وتنشئة أفراد

الجيش وتربيتهم وتدريبهم على العادات والموروثات التركية التي بدت هزيلة وباهتة . فكان أفراد الجيش العثماني ليسوا مقاتلي جيش الإسلام ؛ ولكنهم مقاتلو جيش تركي دينه الإسلام .

ثانياً : البعد العقيدي والنفسي في كل من الجيشين :

بالرغم من وجود العصبية القبلية في الجيش الأموي بالشكل الذي وصفنا . إلا أنها لم تتسرب إلي عقيدة المقاتلين ونفسياتهم المهيأة للجهاد في سبيل الله ونشر الدعوة الإسلامية في بقاع الأرض . فجيش الفتح الأموي لم يكن يعوّل على العصبية القبلية ، وبالذات عندما تعددت العناصر التي انضوت تحت لوائه وشاركت في فتح المغرب والأندلس . وكانت قوة العقيدة والروح العالية للمقاتلين هي الدافع وراء التقدم في المناطق التي وصل إليها الجيش في كافة الاتجاهات . ولعل الموقف الاستراتيجي الصعب الذي خرج منه الجيش الإسلامي أثناء تقدمه صوب المغرب والأندلس تحت إمرة طارق بن زياد وموسى بن نصير ، بسبب مضاء العزيمة وقوة العقيدة والروح العالية لذي دلالة في هذا السياق . يضاف إلي ذلك وفي نفس الخصوص تقدم الجيش الإسلامي تلقاء موسكو وسط ظروف مناخية قاسية ومحاصرتها والاقتراب من فتحها لولا إنهيار الدولة الأموية بشكلها النهائي

وفي المقابل كان من الصعب التنقيب عن البعد العقيدي في كيان المقاتل في الجيش العثماني ، ليس لأنه لا وجود له فقط ، ولكن لأنه غير محسوب من البداية ضمن المنظومة الفكرية والمعنوية المعتمدة رسمياً من الباب العالي لتربية وتنشئة الأطفال المسيحيين المختطفين . تلك المنظومة التي كان قوامها العادات التركية وتعاليم الدين الإسلامي الشكلية وليست الروحية . ومن ثم فلم يكن ثمة أي صدى للعقيدة الإسلامية في سلوك المقاتل التركي أو في

وجدانه ، أما روحه المعنوية فقد اكتسبت صلابتها قبل الاقتراب من مرحلة الاضمحلال من النزعة العنصرية القومية التي تم شحنه بها ، والتي صورته بشكله وهيئته على أنه أقوى مقاتل في العالم لأنه تركي عثماني إنكشاري .

لقد بات القياس ممكناً ، إذا ما ارتددنا بالنموذجين الأموي والعثماني إلي نموذج الجيش الإسلامي في عهد النبوة الزاهر والخلافة الراشدة . وليتبين لنا بسرعة وسهولة أن النموذج الأموي كان الأقرب إلي النموذج والمثال .

ثالثاً : هوية الفتح :

إن نظرة فاحصة إلي انطلاقة الجيشين الأموي والعثماني نحو فتح مناطق جديدة ، وأضافتها إلي حمى الإسلام ، وحمل وتوصيل وتبليغ الدعوة إليها ، لتفضي بنا إلي تحديد هوية ذلك الفتح ، ورسم معالم مقاصده وغاياته .

فالجيش الأموي منذ انطلاقته الأولى نحو الفتوحات الإسلامية لم يتحرك إلا باسم الإسلام مستهدفاً الدعوة إليه في المشارق والمغارب ، ولم يتم أي فتح أو دعوة إلي الإسلام باسم الأمويين أو باسم الدولة المنسوبة إليهم ، وإنما كان الفتح يتم باسم الإسلام وباسم دولة الإسلام . وكان ذلك هو النهج الذي اتبع في عهد النبوة الزاهر والخلافة الراشدة . وترتيباً على ما تقدم فكافة الممارسات التي تمت خلال عمليات الفتح من حمل الدعوة وتوصيلها وتبليغها ، كانت تتم باسم الإسلام ووفقاً لمنهجه في التعاملات القائمة على إنسانية الدعوة وعالميتها ، وسماحة الإسلام ورحابته .

أما الجيش العثماني فقد بدأ انطلاقته باسم العثمانيين كقومية وعنصرية ، ثم باسم الإسلام بوصفه دين الأتراك ، ولم تتم الغزوات وإخضاع المناطق التي سيطروا عليها إلا باسم القومية التركية ، ورغبة في تحقيق أمجاد وبطولات لتلك القومية ثم للسلاطين والحكام

العثمانيين . ولم يتعامل العثمانيون مع أنفسهم كجنود مسخرين لخدمة الإسلام ، ومتيضين لنصرته والدفاع عن حماه ونشر دعوته كما ادعى ابن خلدون ، ولكنهم كانوا يمررون كل ذلك عبر القومية التركية وخصوصيتها الثقافية وربما ينتبهون به كذلك إليها .

كما أن إطلالة على علاقات الدولة العثمانية بالمناطق التي تم إخضاعها لتوضح أن المساومات التي تمت مع أهل تلك المناطق إن هي إلا ترضيات ومساومات سياسية تمت باسم الدولة وأدارها الساسة والحكام لتحقيق أهداف وطموحات معينة ، ولم تكن باسم الإسلام وضمن سماحته المنسوبة إليه وإلي خصائصه الأصيلة .

رابعاً : مآل الفتح :

من المفارقات الغريبة في هذا التحليل المقارن بين طبيعة الجيشين الأموي والعثماني والجديرة بالذكر والتبيان هي مآل الفتح . فالفتوحات الإسلامية التي تمت في عهد الأمويين كانت في امتداد مستمر وتواصل دائم حتى انهيار الدولة . ومعنى ذلك أن الفتح والدعوة إلي الإسلام لم يفترا في يوم ما في العصر الأموي . ولم يحدث أن تنازلت الدولة أو تراجعت عن أي جزء من الأجزاء التي فتحتها وحملت الإسلام وأوصلته إليها . ولقد انقضى نحبها وهي عاكفة على الجهاد في سبيل الله قائمة عليه بكل ما أوتيت من قوة ، ولم ينحسر الإسلام عن المناطق التي فتحها الأمويون إلا بعد رحيل دولتهم بزمان . فلم يُقدّر لمن جاء بعدهم الحفاظ على تلك الفتوحات وأن يحميها .

في حين كان الوضع في الدولة العثمانية جد مختلف . فالمناطق التي سيطر عليها العثمانيون في أوربا وآسيا وأدخلوها إلي نطاق الدولة الإسلامية لم تدم طويلاً تحت تلك السيطرة ، إذ سرعان ما بدأ العثمانيون في الانسحاب ، وبدأ نفوذهم في الانحسار ، وتقلصت دولتهم أمام الضغوط الأوربية القادمة من الشمال . ليس هذا فقط بل كانت هناك

تنازلات عن أراضٍ دخلها الإسلام قبل مجيء العثمانيين . إلي أن أصبح جسد الدولة العثمانية بالكامل محل تقسيم وتوزيع بين القوي الأوربية . حينما لقبوها بالرجل المريض ، وانتهى الأمر بسيطرة أوربية على الدويلات الإسلامية !! .

خامساً : الدفاع عن الحضارة الإسلامية ضد الاعتداءات الخارجية :

نتحول إلي مهمة أخرى من مهامات الجيش الإسلامي وهي المتعلقة بالدفاع عن الحضارة الإسلامية ضد الاعتداءات الأجنبية . وربما كان للتطور التاريخي دوره الحاسم في خلق وتطوير هذه المهمة أمام كل من الجيشين الأموي والعثماني ، فالجيش الأموي دافع بقوة وحيوية عن الحضارة الإسلامية في كافة ربوع الدولة ، وقلل بشكل ملموس من تلك التعديات الخارجية حيث اقتصرت على العدو التقليدي في ذلك الوقت وهو الدولة البيزنطية التي كانت ترهب الجانب الإسلامي وتحسب حسابه .

أما الجيش العثماني فقد فعل التطور التاريخي فعله معه ، حيث تطورت القوى الأوربية بسرعة ، وبدأت في تشكيل خطورة على كيان الدولة العثمانية ، وشرعت الأخيرة في الانحسار والتقلص التدريجي إلي أن أسلمت زمام أمورها بالكامل للدول الأوربية التي كانت تمثل قوة صاعدة في ذلك الوقت ، وهنا اخفق الجيش العثماني نهائياً في الدفاع عن الحضارة الإسلامية أمام الزحف الأوربي بحضارته المادية التقنية الجارفة ، وكانت مواجهة غير متوازنة بين التقدم المادي والتطور التقني الذي مثله الأوربيون ، وبين الركود والتخلف المادي وضياع الذات وتبددها الذي مثله العثمانيون والمسلمون معاً .

سادساً : تفعيل الحضارة الإسلامية داخل أجزاء الدولة :

إن دور الدولة الأموية بكامل مؤسساتها وبصفة خاصة المؤسسة العسكرية في تفعيل وازدهار الحضارة الإسلامية أوضح من أن يشار إليه أو يذكر ، فقد انتشرت الدعوة الإسلامية

ووصلت إلي مناطق لم تصلها من قبل وربما لم تصلها فيما بعد ، ومع الدعوة انتشرت الحضارة بتنظيماتها السياسية والإدارية والاقتصادية والنظام الاجتماعي . وكذا فنون العمارة والتشكيل والتخطيط العمراني والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها . أما في العصر العثماني وبالرغم من طول مدة هذا العصر إلا أن الحضارة الإسلامية لم تشهد جديداً إلا فيما ندر ، وكانت هذه بالفعل مرحلة تقشف وشظف في تاريخ الحضارة الإسلامية .

سابعاً : لمن كان العطاء ! :

أخيراً نأتي إلي آخر بنود كشف الحساب في تحليلنا المقارن بين الجيشين الأموي والعثماني ، وهو المتعلق بالمستهدف بالعطاء . فالجيش الأموي أعطى جهده للإسلام وللحضارة الإسلامية وأخيراً للدولة الأموية ، أما الجيش العثماني فقد أعطى الدولة العثمانية ممثلة في حكامها ، ثم للثقافة التركية التي جاهد من أجل تضخيمها وترقية شأنها ، وأخيرا للإسلام الذي كان ينتسب إليه ، ولا يمكنه الادعاء بأنه أعطى ما يذكر للحضارة الإسلامية